الكتابة لفلسطين

لم يعد " بالدم نكتب لفلسطين " مجرد شعار على جدار، فقد سكب الدم الفلسطيني على الاقلام والاصابع حروف التلاحم الذي عكسه الموت والاندثار. ومن عمق جراح الجوع المفروض حصاراً ودماراً . ومن بين الانياب القاضمة الذات سراً .. وجهاراً .. تنامي زهر الحنون ، وارتجفت اغلال الخوف وقد غمرها الياسمين برائحة فلسطين.

قال الاسد :

دقو الوتد

لا تسمحوا لاحد

ان يلتقي بأحد

وكان عصر الجفاء القسري قد تمطى بصلبه. وكان قهر الجغرافيا يمسح عن الكرة الا رضية ملا مح المنافي.كانت سكين الحقد تشق جدران المقابر لتمزق اواصر التواصل بين الشهداء . وكان المطار يغلق ابوابه عند مفرق الحرية وتختفي جوازات السفر الباحثة عن النور في دياجير الضابطة اللافدائية .

قال خدام :

من منكم يكتب لفلسطين بدمه ، فليثبت لنا اولاً ان عنده دم .

عندنا هنا سياسة واحدة. فمن تبعنا نطعمه ونكسيه ونسمعه من ابواقنا ما يرضيه. ومن رفت عينه نحو التحرر منا فليذهب بعيداً عنا الى غير رجعة. ومن يحاول ان يلعب معنا لعبة البهلوان. نقول له .. كان زمان .. الفلسطيني يا "ع" .. يا "ع" يا اما عميل .. يا اما عدو .

هكذا قال خدام .. وكلامه صحيح . وبين الصح والغلط ما فيش موقف وسط وهكذا انحاز الكتاب الى فلسطين مخلفين وراءهم كتبة التقارير السوداء في صف العملاء .

كان اللقاء الاول محموماً بالفرحة كلقاء الاحبة الناجين من هزة ارضية حادة. تماوجت الطائرة التونسية في ارض المطار وقد اكتظ في ممرها المتدافعون نحو احضان بعضهم الخالطون الدموع بالبسمات بصراخ التعويض عن الحرمان .

خرج الطيار من كابينة القيادة مستغرباً اهتزاز الطائرة غير العادي. قلت له. هذا لقاء الاحبة الذين حالت اوتاد الحقد بين دموعهم ودموعهم . هنا يندثر السجن وينسحق المنفى . وهذه لحظة الفلسطينية التي تقتل ذاكرة الالم بسيف الامل .

وهمس شاعر سوري مناضل جاء مع عدد من رفاقه ليشارك الكتاب الفلسطينيين فرحة تعزيز وحدة اتحادهم قائلاً : الان عرفت لماذا كان قرار " جماعتنا " عدم السماح للفلسطينيين بلقاء بعضهم يبدو ان للدم الفلسطيني كيمياء خاصة . ولقوانين حركته واندفاعه ، وتنافره وتجاذبه ما غاب عن بال نيوتن نفسه .

وتذكرت وصايا الفرسان " الفلسطيني كالاسفنجة اذا رفعت قدمك عن راسه شمخ . فدس عليه حتى يوم

القيامة" .

وتذكرت زظام الفارس الذي لاحظ انزعاجي من فظاظة التشبيه فقال: لقد تطورت الامور عند الكثيرين. فقائد فصيلنا الشيخ زعل قبل ان يحب الفلسطينيين كان يحرف الوصية الا ولى ويقول الفلسطيني كالزمبرك اذا رفعت قدمك عنه قفز وقلع عينك " .

يبدو لي الان ان الفرسان في كل مكان وانهم يطبقون قانونا عاما على حالة خاصة عنوانها ليس من حق الفلسطيني الاستقلال او تقرير المصير . الاستقلالية ، تبدأ بالذات اولا. وبالكاتب اولاً واولاً .

فالفكرة ان اصبحت طفيلية فان ثمارها تولد مشوهة .

وبستان الكلمات الحر عطاء لثمار الحرية يتنفس من همسات وجيب قلوب الشعب ويرصف درب الحرية بنجوم النصر .فالكاتب خارج بستان قضية شعبه مهما كتب وابدع تظل مواخير السوس تعشش في نفسه، والكاتب من قلب الجرح ومن عمق المأساة ونكران الذات ومن همسات الاطفال وفرحتهم بفراشات الحقل الاخضر ، ان خالفه الابداع ... كان . وان خالفه فلا خطر . يتراكم منه الخير قطرات ندى تعطي بحر محبة خير من موج يتصاخب منفوخا برياح الاعداء. لابد من صنعاء وان طال السفر . الكاتب هم .. هم . ما الذي جد فغابوا عن صنعاء ؟ طبعاً ان للمخيم الفلسطيني المنفي قسرا قدسية الاقصى الاسير . فحين تراكم الدنس الصهيوني محاولاً اجتثاث جذور الاقصى هبت ريح القدس على العالم . ولمعت في الوهج شفرات سكاكين المطبخ تذبح عصر الاسلحة النووية وحرب النجوم وتكوم في قبضات الاطفال صواريخ الحجارة المصبوغة بتقوى الارادة . وتركزت الحرب الامبريالية الصهيونية حول شاتيلا وصبرا وبرج البراجنة والرشيدية مستخدمة اخطر واقذر اسلحة العصر ... العملاء ..

حتى على ذلك الكوخ الرطب في البرغلية حيث تضع ذات حمل حملها تعانق القصف البري البحري الجوي . تري خدام الصهيوني متوحدا ضد فلسطين الشعب ، فلسطين الثورة . اين اذن يقف الكتاب ؟ وعلى أي الابواب ؟ وباي الاقلام سيكتب من يكتب لفلسطين ؟ هل يكتب بعظم مسلول من لحم مهروس حلل الشيخ فضل الله اكله ؟ فالضرورات تبيح المحظورات . ام يكتب بلعاب الاسد الذي استلقى على قفاه ضاحكا وهو يمسح الخبر وقال: هذا شيخ متخلف. المحظورات هي التي تستبيح الضرورات ، ونحن من زمان قد استبحنا اللحم الفلسطيني الحي. فهو ضروري لكل الصفقات ..

ويدرك الكتاب انهم يواجهون عصر الانقراض. فالصفقات المنفردة والثنائية والثلاثية تتساقط كالمطر صواريخ وجوعاً وعطشاً وتصفية على الشعب . وفي وجهه تنسد سبل الرزق وتضيق المطارات بما وسعت . والفلسطيني يقاوم ويقاوم ولا مناص للكاتب من ان يقول الحقيقة . فالكتابة لفلسطين هي الحقيقة وحين يعرف الكاتب ماذا يريد فانه سيعرف حتماً ماذا لا يريد ...

انه حتماً ضد الاقتتال .. انه يريد البنادق كل البنادق نحو العدو الصهيوني .

انه حتماضد التبعية .. لانه يريد الاستقلال وحق تقرير المصير .

انه حتماً ضد الاحتلال والوجود الصهيوني .. لانه يريد تحرير فلسطين كاملاً .

واقامة الدولة الفلسطينية الديمقراطية المستقلة وعاصمتها القدس الشريف .

انه حتما ضد التخلف والاستغلال .. لانه يريد بناء مجتمع فلسطيني تقدمي يكون اساسا لمجتمع عربي تقدمي موحد .

انه حتما ضد التفرقة والتجزئة .. لانه مع الوحدة الوطنية ومع الوحدة القومية .. وهو يعلن دائماً ان فلسطين طريق الوحدة ...

انه حتما ضد الاستسلام .. لانه مع الكفاح المسلح مع الثورة الشعبية حتى النصر .

وبالرغم من بعض الضياع عند بعض الكتاب فان اروقة المؤتمر العام الخامس للكتاب والصحفيين الفلسطينيين المنعقد في الجزائر لم تواجه أي نقطة خلاف حول أي موضوع فلسطيني .. الخلافات التي حصلت كانت مستوردة من مصادر الجغرافيا القاسية وليس من قبل الصدفة ان حركة " فتح " منذ انطلاقها تبنت اسلوب عدم الزج بالقضية الفلسطينية في أي خلاف عربي او دولي باعتبارها قضية مقدسة وفوق أي خلاف .

والذي يعرف كيف يخوض معارك فلسطين منطلقا من الايمان المطلق بحتمية النصر ومن الاستعداد الدائم للتضحية يعرف كيف يكتب لفلسطين ..

وانها لثورة حتى النصر ...

حبيبتي .. ومهرها الجراح

تنام في جبيني الاسماء دونما حروف

وتسقط الفواصل،

القنابل التي تغوص

في دمي

وفي مسام حقدها اطوف

وترتمي الزهور من يدي

وفي يدي الكلام كلما تطل شهرزاد

من نوافذ الصباح

تلوح لي على المدى فواجع الرياح

وترتدي حبيبتي السماء معطفاً

وتكتسي بادمعي

وتسقط ابتسامتي على جبينها مرارة

وحولها الغربان تسرق الربيع

تحرق الدموع

قد كانت الزهور في يدي تلونت بفرحة التراب .. تمايلت مع ابتسامة النسيم للرياح .. وعانقت حبيبتي الزهور

وخاصرت حبيبتي الكروم ... والنخيل .. والجبال

وكسرت حبيبتي الحدود، والسياج

والفواصل التي يسيل شوكها دماً
يا لوعة الزهور ...
قد تلونت بآهة العذاب
كان شهريار يرقب النجوم والحراس يربطون الشمس
والنوافذ التي تعانق الضياء هاجرت والسيف صادر الصياح
شهرزاد لن تموت
وكان لي يد تناثرت على الجبال
كي تحرر الضياء
تصبغ ابتسامة الصباح بالدماء
وتفتح الطريق نحو عرشها حبيبتي ..
ومهرها الجراح
تنام فوق كفي الاسماء
في اصابعي تردد وفي دمي هتاف
وكانت السماء امطرت
فحاصرتها غيمة خبيثة هدت على محبة الجبال
زيفت امطارها
تلونت بالحقد
امطرت قنابلاً توزعت على الجياع
تثاءبت اميرة الرمان
اقرعوا الطبول
وزعوا الخيرات
ان والدي يطل من عيون الارز كي يرى لبنان فلتسحقوا الزهور
والاشجار
والندى
لتصنعوا السماد
تقفز فوق كفي الاسماء
في اصابعي تردد وفي دمي هتاف
ويسرق الزناد اصبعاً يشده

وتكتسي موائد الجياع بالجفاف
ويرحل الغدير عن مجراه
كانت الزهور في يديه نشوة .. جفت
وكانت الرياح ترتدي نوافذ النسيم
وكلما تطاولت حمامة على الجناح
عانقت حبيبتي الجراح
وكلما تفتحت امام اعين التاريخ زهرة
تطاولت بالحقد ارجل الكمائن المقنعة
لتسحق التاريخ والجغرافيا
وتصرخ الضمائر المستوردة ...
المجد للارزة ... للمافيا
وترجع الحمائم التي تطير فوق بسمة الجراح
تصبغ الورود
البارود ..
والندى
وتنشر التاريخ ابيضاً على المدى
وتمسح الجراح والحدائق المزوره
ويهتف الصغار ..
المجد للاشجار
للثمار
للثوار
للشوارع المنورة
لخفقة المتراس حاملاً لبنان
شامة على جبين الشرق
بسمة العروبة المحررة المجد في لبنان
للانسان